مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 28، العدد 11: 2020.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(28), No.(11): 2020.

التعددية وملامح حدود الصراع: مقاربة أنثروبولوجية للمشهد العراقي

أحمد محمد حسين قاسم
الجامعة اللبنانية المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الاجتماعية
Mob230@gmail.com

معلومات البحث
تاريخ الاستلام : 12 / 10/ 2020
تاريخ قبول النشر: 19/ 10 / 2020
تاريخ النشر: 12/12/ 2020

المستخلص:

يهدف البحث الى معالجة تجليات مبدأ التعددية في العمليات التفاعلية بين الجماعات الثقافية المختلفة المنضوية في إطار واحد. وقد وضع البحث عمليات التفاعل الاجتماعي التي تم إسقاطها على مبدأ التعددية ومعرفة ماإ ذا كان للتعددية من تأثير على تلك العمليات وهي التمثيل، التنافس، الصراع، والتوافق. وعليه فإن تمثيل القيم والعادات لم يحدث بين الجماعات بل كان في داخل كل جماعة على حدة، وأن التعددية مع إضافة بعض العوامل كالمتصل الطائفي إذ غدا عاملا مهما في الصراع، وهكذا كانت التعددية مؤثرا كبيرا في التنافس على مستوى المكان، والمكانة، والمكِنة) في التنافس. فالتهجير كان نتيجة التنافس على المكان، وحدّة الخطابات الإثنية كانت نتيجة التنافس على المكانة، لكن التنافس في المكنة الجانب الاقتصادي كان عاملا مهما في درء الصراع، لتشارك الجماعات في الاقتصاد، والمحافظة عليه، وكذلك أدى درء الصراع إلى وجود حالة من التوافق أنتجت ما نسميه بلُغَة التحاشي، التي قد تبدو للوهلة الأولى عاملا إيجابيا أو نتيجة إيجابية للتفاعل لكنها على شفى حفرة من عودة الصراع فيما لو تم اختراقها عن طريق المتصل الطائفي.

الكلمات الدالة: التعددية، التفاعل الاجتماعي، التنافس، الصراع

Pluralism and the Features of Conflict Limits: An Anthropological Approach in the Iraqi Landscape

Ahmad Mohammed Hussein Qasim
Lebanese University Doctoral School of Literature, Humanities & Social Sciences

Abstract

This research aims to identify the manifestations of the principle of pluralism in the interactive processes between the different cultural groups within one framework. The research defines the processes of social interaction that are projected on the principle of pluralism to know whether pluralism has an impact on those processes; namely representation, competition, conflict, and consensus. The study finds that the representation of values and customs do not occur between groups but within each group separately and that pluralism, with the addition of some factors such as the sectarian continuum, becomes an important factor in the conflict. Thus, pluralism is found to be a major influence in the competition on the level of place, status, and empowerment in any competition. Therefore, the displacement of a certain group has been the result of competition for place and the intensity of ethnic discourse has been the result of competition for status. The competition in economics, on the other hand, has been an important factor in preventing conflict, for groups to participate in, and maintain the economy. Preventing conflict also led to the existence of a state of consensus that produced what we may call “avoidance mechanism” which may appear at first glance a positive factor or a positive result of interaction, but it is actually close to returning conflict if it is penetrated by the sectarian communicator.

Key words: Pluralism, social interaction, competition, conflict

by University of Babylon is licensed under a Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH)
Creative Commons Attribution 4.0 International License

أولا: موضوع البحث وتساؤلاته

لا يخفى على المتتبع ما لطبيعة العلاقات الاجتماعية ضمن المجتمعات المتعددة من تاثير كبير في صيرورة أية دولة من حيث واقعها السياسي والتنموي، فقد يكون التعدد بركاناً مدمراً يعصف بتشكل الدولة إذا ما أُسيء توجيه السياسات الخاصة بالتعامل مع هذا التعدد.

وعلى العكس من ذلك فقد يكون التعدد قوة خلّاقة تتكامل في ظلها الطاقات المتنوعة في بناء رقعة التعايش المشترك.

وحتى نتعرف على قطبَي التعددية (بركان مدمر/ قوة خلّاقة)، لابد وأن نتعرف على طبيعة التفاعلات بين الجماعات الداخلة في الدولة المتعددة، وهذه الطبيعة تنطوي على عمليات التفاعل الأربعة، التي تحكم الجماعات داخليا (داخل الجماعة نفسها)، وخارجيا (بين الجماعة والجماعة الأخرى)، وعمليات التفاعل هي: (التمثيل، التنافس، الصراع، التوافق).

وعليه فإن تساؤلات البحث ستكون كالآتي:

1. معرفة تأثير التعددية من حيث (التمثيل) وكيفية تفاعل المكونات الثقافية فيما بينها من حيث تشربها أو امتصاصها للقيم والعادات والتقاليد التي فرضها على تلك المكونات نظامُها الثقافي.
2. معرفة تأثير تلك التعددية في (التنافس) الذي قد يحدث بين تلك المكونات ومعرفة مدى تأثيره في طبيعة التفاعل الاجتماعي.
3. محاولة اكتشاف ما يمكن أن تحتويه تلك التعددية من مقومات (الصراع) بين المكونات نفسها.
4. السعي لإيجاد ما يحتمل توافره من نقاط (التوافق) التي تحكم طبيعة التفاعل الاجتماعي بين تلك المكونات.

من هنا يتضح الهدف الرئيس الذي يسعى البحث إليه، وهو الإجابة عن التساؤل الآتي: أين يمكن إيجاد تأثير التعددية في التفاعلات الاجتماعية؟، فهل نجدها في التمثيل، أو التنافس، أو الصراع، أو التوافق، أو بعضها، أو جميعها؟

ثانيا: التعددية والتفاعل الاجتماعية

التفاعل في اللغة مأخوذ من الفعل وهو ((كناية عن عمل معتدٍّ أو غير معتدٍّ، فَعَلَ يَفْعَل فَعْلاً وفِعْلاً، فالاسم مكسور والمصدر مفتوح، وفعله وبه، والاسم الفعل، والجمع الفعال مثل قدح وقداح وبئر وبئار)).(1) ولأنه مصدر تقابل فإنه يشير إلى تقابل فعلين صدرا من جهتين بشكل متعاقب.

أما في الاصطلاح فإنه يشير إلى ((التأثير المتبادل بين سلوك الأفراد والجماعات من خلال عملية الاتصال والتفاعل ويقصد به أيضا ما ينتج عن الطبيعة البشرية من تأثير متبادل بين القوى الاجتماعية والثقافية ذاتها هو نتاج التفاعل الاجتماعي))(2).

وللتفاعل - كما مرَّ سابقا - عمليات أربع سنوضح تأثيرها على التعددية بعد أن نفيها حقها من التحديد مفاهيميا. وعليه سيحاول البحث معرفة هذه العمليات الأربع وكيف يتفاعل أفراد كل جماعة وفقا لتلك العمليات.

ثالثا: التعددية والتمثيل

المثل في اللغة: ((الشيء يضرب للشيء فيجعل مثله والمثل الحديث نفسه وأكثر ما جاء في القران نحو قوله جل وعز ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ فمثلها هو الخبر عنها))(3). ويقال: امتثلت مثال فلان احتذيت حذوه وسلكت طريقه(4).

أما في اصطلاح الاجتماعيين والأنثروبولوجيين فالتمثيل ((لفظ يستعمل عادة للإشارة إلى العملية التي من خلالها يتمثل ويستوعب المهاجر أو جماعة أثنية ثقافة المجتمع المستقبل لها وتختلف عن الاستيعاب البيولوجي، ويتضمن التماثل زيادة مشاركة الأقلية في النظم الاجتماعية لجماعة الأكثرية وكذلك زيادة عملية التلاقح الثقافي بينها(5). وهو أيضا ((تثقف كامل، [وكذلك] اختفاء الفوارق الثقافية والمنافسات بين الشعوب. [ويعني أيضا] اندماج الفرد أو الجماعة في جماعة أخرى أو اندماج الجماعات في حياة ثقافية مشتركة))(6).

وهناك نوعان من التمثيل من حيث طبيعة آلية التمثيل بين ثقافتين أو جماعتين أو مكونين ثقافيين:

1. التمثيل الأحادي أو أحادي الاتجاه ((أي اختفاء الوحدة الثقافية المميزة لجماعة ما نتيجة لاكتسابها الكلي لثقافة الجماعة المستقبلة))(7).
2. التمثيل الثنائي أو ثنائي الاتجاه:((أي انصهار ثقافي للجماعة القائمة والجماعة المستقبلية وفقدانها لسماتها الأولية وظهور ثقافة جديدة))(8).

من هنا سنعرف أن عملية التمثيل تقوم على أساس تشرب الفرد قيم جماعاته وعادتها وتقاليدها وميولها واتجاهاتها عبر صيرورة معينة ، تجعل من الفرد متبنياً لقيم جماعته، الأمر الذي يدفعه هو نفسه إلى أخذ دور التنشئة لمن يجيء بعده، وهكذا حتى تستمر الجماعة، ولا يكتفي بهذا الدور(التنشئة) فحسب بل يتعداه لحماية جماعته من المخاطر التي تهدد وجودها الذي يمس وجوده بالضرورة، خاصة بعد ان اعتقد بأن حاجاته لا يمكن تلبيتها من جماعة أخرى، هذا يعني أن عملية الفرد مع جماعته يحدث عبر صيرورة معينة (مدخلات/ مخرجات) وهي تغذية الفرد من قبل الجماعة بقيمها وعاداتها وتقاليدها ....إلخ؛ ليتبناها، ويكون منتميا لها ثم يقدم الولاء لها بذوده عنها وحمايتها، والسعي لتطويرها باتجاه امتدادها، أو ترسيخ وجودها؛ حينها يتميز الفرد بالشخصية الاجتماعية الاساسية(*). هذه الصيرورة إذن، تتكون عبر عمليتي (الانتماء، والولاء).

فالانتماء يمثل نزعة تتدفع الفرد للدخول في إطار اجتماعي فكري معين بما يقتضيه هذا من التزام بمعايير هذا الاطار وقواعده وبنصرته والدفاع عنه في مقابل غيره من الاطر الاجتماعية والفكرية الأخرى(9)، وكذلك يمكن القول: إنه ارتباط الفرد بجماعة، إذ يرغب الفرد في الانتماء إلى جماعة قوية يتقمص شخصيتها ويوحد نفسه بها(10). هذا الارتباط (الانتماء) جاء نتيجة شعور الفرد بالأمن والاستقرار خلال وجوده بين جماعته، وانها اشبعت أو تشبع له حاجاته المادية والنفسية والاجتماعية، وحققت له بعض أهدافه ودافعه.

أما الولاء فيمثل مُخرجاً من مخرجات تلك الصيرورة وهو يعبر عن إخلاص الفرد والتزامه تجاه قضية ما تشكل محور وجوده وأساس تفاعله مع الآخرين وهي تعبر عن تضامن الفرد وتأييده لمرجعية اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو أيدولوجية تطابق وعيه الذاتي أو الموضوعي(11).

وليس هذا التشرب إلا أولى عمليات التفاعل الاجتماعي، وأن عملية التمثيل هذه تتناسب طرديا مع قيمة الجماعة وعاداتها وتقاليدها فكلما تشرب الفرد هذه القيم والعادات أكثر؛ ازداد بها التصاقاً واعتقاداً بجماعته وصار اكثر حرصا على بقائها ونموها وترسيخ وجودها، ما يدعو الجماعة لإشباع احتياجاته، فيقابلها بالولاء وحمايتها من المخاطر أو يعمل على البحث عن ما يجعلها تمتد اكثر لتأخذ مديات أوسع وأرحب لتكافئه –

بالمقابل – بمزيد من سد حاجاته ربما غير الفردية حتى، وهو الأمر الذي يبرز العملية الثانية من التفاعل الاجتماعي وهي (التنافس).

رابعا: التعددية والتنافس

النفس في اللغة ((الروح، يقال: خرجتْ نفسُه. قال أبو خراش: فما سالم والنفس منه بشدقه ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا، أي بجفن سيفٍ ومئزرٍ))(12). ((وشيء نفيس أي يتنافس فيه ويرغب وهذا انفس مالي، أي أحبه وأكرمه عندي وأنفسني فلان في كذا أي: رغبني فيه))(13). ((ونفس الشي بالضم نفاسه أي صار نفيسا مرغوبا فيه ونافس في الشي منافسة ونفاسا وإذا رغبت فيه على وجه المباراة في الكرم وتنافسوا فيه اي رغبوا))(14).

أما في الاصطلاح فإنه يشير إلى أن ((السلوك التنافسي أو العلاقات الاجتماعية التنافسية [تتضمن] استخدام استراتيجيات توضع بهدف الحصول على زيادة في الموارد المحدودة كما تتضمن هذا الاستراتيجيات إبعاد الآخرين عن هذه الموارد))(15).

ويسعى الفرد المنتمي والموالي لجماعته عبر عملية التنافس إلى ثلاثة موارد هي: (المكان والمكانة والمِكْنة)(16). أما المكان فيمكن أن نعبر عنه، بعمليات الإزاحة المكانية (المكان) التي تحدث لدى الأفراد للبقاء في المكان الذي حصلوا عليه من قبل أو القيام بتلك الإزاحة لتأخذ الجماعة مكاناً اخر لتمتد أكثر من السابق حتى لو على حساب جماعة أخرى، فهنا يطرح التساؤل: ماهي آلية الإزاحة المكانية؟ فنقول إما بشراء الأماكن وإبعاد المشتري عنها. أو بعملية وضع اليد، وهذا ما حدث في العراق عندما وضعت مؤسسات يدها على قطع اراضٍ لمؤسسات منحلة منذ ما قبل 2003، أو بعملية إخراج آخرين من مساحاتهم المكانية والاستيلاء عليها وهذا ما يسمى اليوم بالتهجير، وهناك أيضا هجرة (غير قسرية) تمثلت بترك الفرد بيته خوفاً من أمر قد يؤدي فيه حياته إلى الخطر. وهذا لا يمثل إزاحة مكانية بشكل مباشر.

أما المورد الثاني فهو (المكانة)، وذلك بالسعي لدعم أحد أفراد الجماعة بتسنم مكانة اجتماعية معينة لتكون لهم سنداً في الحصول على الموارد ودعمهم مادياً ومعنوياً أو ليكون مدخلا لنشر بما يؤمنون به والتبشير به والدعوة لالتزامه، أو الإيمان راسخ عندهم أنه الأمثل لهذه المكانة التي ستجني الكثير من المنافع للصالح العام.

وهذا نراه واضحا في المنافسة في الانتخابات إذ تسعى كل جماعة في العراق لدعم مرشحها كما حدث في انتخابات مجلس النواب، وكذلك ما حدث في انتخابات مجالس المحافظات، والأمر نفسه في انتخابات المجلس البلدي والمجلس المحلي.

اما (المِكْنة) فيمثل: القدرة على إدارة الاقتصاد والاستفادة منه أو –كما ذكرنا– التسويق لنموذج الجماعة ورؤيتها للعملية الاقتصادية، أو الإيمان بأن الجماعة هي القادر على معالجة كوامن الخطأ في المسيرة الاقتصادية، ومن ثم انعكاس ذلك على الصالح العام.

وفي العراق فقد حدث نوع من التنافس على الاقتصاد خاصة إبان الصراع إذ بنت كثير من الجماعات حولها أشبه بالحصن وكوّنت نظاماً تبادلياً داخلياً؛ ليعوضها عن الخارج الاشبه بعنقِ زجاجة، أو لقيام مشروع أكبر كما حدث في المناطق الغربية في إعلان ما كان يسمى (دولة العراق الإسلامية). ببناء حصن خارجي وبناء منظومة فكرية داخلية تُعد لمواجهة الآخر.

على أيٍ فإنه إذا كان هنالك تنافس غير محكوم بلوائح وقوانين، كما في الانتخابات أو الطعن بتلك اللوائح والقوانين، بحسب الدعوات التي اعترضت على الانتخابات متهمةً القائمين على المؤسسة التي أشرفت على الانتخابات بعدم الحيادية؛ فسيؤدي ذلك إلى غياب الثقة التي ستُظهر نوعا تنافسيا غير مقنن، وهو ما يطلق عليه (تنافس غير مشروع).

الأمر الذي يلجأ فيه (الذي يشعر بالغبن) إلى الاحتماء بمرجعيات جماعته الثقافية ومحاولة الاتكاء عليها لإثبات وجوده بعيداً عن آلية الانتخاب، وهو ما حصل حينما لم تجد بعض الجماعات في العراق إمكانية خوض الانتخابات لأسباب معينة والدخول في صراع وهو العملية الثالثة للتفاعل الاجتماعي.

خامسا: التعددية والصراع

الصرع في اللغة ((صرعه صرعا، أي: طرحه بالأرض. والصراع: معالجتها أيهما يصرع صاحبه))(17).((وفي الحديث: مثل المؤمن كالخامة من الزرع تصرعها الريح مرة وتعدله أخرى أي تميله ورتميه من جانب إلى جانب...والصرعة: هم القوم الذين يصرعون من صارعوا. قال الأزهري: يقال رجل صرعه وقوم صرعة وقد تصارع القوم اصطرعوا، وصارعه مصارعة وصراعا))(18).

أما في الاصطلاح فيشير الصراع إلى أنه ((سعي غير مباشر نحو أهداف محددة مشتركة بالقضاء على الخصم أو إضعافه))(19).

ويعد الصراع ((مصدرا أوليا أو حافزا للتغير الاجتماعي، لأنه عندما تتعذر تسويته من خلال الآليات المؤسسية لتسوية النزاع، يضطر الطرفان المتصارعان إلى خلق استراتيجيات جديدة إما لحل الصراع أو [لا أقل] تجنب الموقف الذي بسببها))(20).

من هنا يتضح جليا أن الصراع هو ((أحد أنماط التفاعل الاجتماعي الذي ينشا من تعارض المصالح))(21).

وحتى نعي تأثير التعددية في عملية الصراع لابد من معرفة نظرية بيتسون22الذي أسس نموذجه النظري على أساس ملاحظة المنظور التفاعلي الذي يمثل الوسيلة المناسبة لمعرفة القيمة والمعنى لمفاهيم التعدد العرقي، والتعدد الثقافي وتعدد الأجناس في مجتمع أنتقل في أمد قصير جداً. (23) لقد أشار بيتسون إلى أن الاتصال بين مجموعتين مختلفتين ثقافياً في إطار واحد يمكنه أن يؤول إلى واحدة من التشكيلات الآتية:

1. الاندماج الكامل بين المجموعتين.
2. إلغاء واحدة من المجموعتين أو الاثنين معاً.
3. استمرار كلا المجموعتين معا بمقتضى توازن ديناميكي في جماعة أكبر.

أما الاندماج فإنه يستدعي أن تكون إحدى المجموعتين خاضعة فكرياً للمجموعة الأخرى وهذا ليس متأتياً في العراق فكل جماعة تعتدُّ بفكرها وتعتقد به، ويحاول كل منهم ترسيخ قيمه وعقائده وأفكاره ومعاييره بين أفراده. وأما الإلغاء وهي عدم التوازن فإنه يعتمد على جملة من الأمور في علاقات القوة بين الجماعات إذ إن الأولى توازن بين عناصرها المادية والمعنوية لتنتج زخماً في علاقات القوة ما يجعلها مندفعة باتجاه الجماعة الأخرى التي تقابلها، هذه الاخيرة يفترض أن في توازن علاقاتها القوة عندها اختلالاً ما يجعل في علاقات القوة ضعفاً ما يؤدي إلى انكفائها؛ لتسمح للجماعة الأولى الهيمنة عليها وإلغاءها تماماً، وهذا ما حدث في العراق؛ لأن إحدى تطبيقات الإلغاء هي الإزاحات المكانية من إحدى المجموعتين ضد المجموعة الأخرى، وهو ما يطلق عليه اليوم بالتهجير.

أما الحالة الثالثة فهي استمرار كل جماعة معاً بمقتضى توازن ديناميكي في إطار أكبر (العراق). وهذا هو الذي حصل فعمليات الصراع السابقة؛ حدثت عبر توازن بين المادي والمعنوي في علاقات القوة للجماعة نفسها، الأمر الذي انتج زخماً في هذه العلاقات لدى الطرفين، بعبارة أخرى أن لكل جماعة أفراداً مستعدين ومجهزين بكامل التجهيزات اللازمة لإدارة الصراع وهذا هو الجانب المادي، هؤلاء الأفراد واستعدادهم بحاجة إلى عامل معنوي.

وهو البُعد الفكري والاساس العقيدي الذي يستندون اليه في تسويغ الصراع، فإذا حصل هذا التوازن بين المادي والمعنوي أنتج عملية زخم في علاقات القوة، وإذا ما جاوبه هذا الزخم بزخم مماثل حدث الصراع.

وهنا إذا حدثت حالة من عدم التوازن في القوى بين الجماعتين (بان تُوجِدَ الجماعةُ الأولى حالة التوازن بين ماديّاتها ومعنوياتها فيها، في حين لا تتمكن الجماعة الثانية من إيجاد أي نوع من التوازن بين ماديّاتها ومعنوياتها فيها)، حينها ستحدث عملية الإلغاء التي أشير إليها أنفا.

وأما إذا حدث توازن (تكافؤ) في القوة بين الجماعتين بأن يختل التوازن بين المادي ولمعنوي لدى الطرفين، فإنه يحدث نوع من التوازن الديناميكي الذي يسمح لكلا المجموعتين بالاستمرار.

وهو ما حصل في العراق على شكلٍ متعاقب (محاولة إلغاء–توازن قوى– محاولة إلغاء–توازن قوى). ولتوضيح ذلك: في بداية ذلك شعرت إحدى المجموعتين المتصارعتين–مثلا–أن المجموعة الأولى ستُخضع المنطقة لسيطرتها وأعدت نفسها للصراع عبر خلق توازنٍ بين المادي والمعنوي المحفز، لإنتاج زخم في علاقات القوة، وهذا جعلها ترجح في ميزان القوة بين المجموعتين الأمر الذي دفع بالثانية لرد الفعل نفسه، وهو ما أشار اليه بيتسون في تعريفه للانشقاق التكويني بأنه: مسار تفاعلي قائم على (رد الفعل على رد فعل آخر)(24). لكن هذه المجموعة كان رد فعلها أقوى ما جعل الأولى تنعدم الحيلة داخلياً لتستقدم دعماً خارجياً. وهذا حصل حينما عملت الجماعات ذات أقلية في مناطقها لاستقدام الدعم من مناطق مجاورة أو مناطق يربطها طريق مباشر كنهر أو جسر أو شارع رئيس لا يمر بالمناطق ذات الكثافة من الجماعات الأخرى فيما يمكن تسميته بـــ(خط متصل طائفي) وهذا المتصل مدَّ هذه الجماعات بالأفراد (مادي) وحافز تشجيعي (معنوي) فأعاد ميزان القوى من جديد، بل منحه زخماً أقوى، وهذا الزخم تحول عند الجماعات الأخرى إلى مسوغ لاستقدام دعم من الخارج من منطقة مجاورة وهو ذاته (خط متصل طائفي)؛ ليعيد ميزان القوى من جديد.

ويمكن نحت تعريف لـــ(المتصل الطائفي): وهو مفهوم مستوحى من مصطلح (المتصل الريفي الحضري)(25) يتحدد من خلال وجود خط مكاني ذي بعدين (مادي/معنوي) يتوسط في نقل الزخم في علاقات القوة من منطقة ينمو فيها ذلك الزخم إلى منطقة يتراجع فيها ذلك الزخم(26).

ثم بعد ذلك حدث ما مر ذكره بالانشقاق التكميلي، وهو الاختلال في التوازن بين المادي والمعنوي في داخل الجماعة الواحدة، وسببه :

1. قوة التشارك في الاقتصاد بين الجماعات قبل 2003 ساهمت بشكل فاعل في تراجع الصراع.
2. تمتاز معظم المناطق المتعدد –باطّراد– عمليات المصاهرة بين الجماعات إذ لم تشهد معظم المناطق حالة تطليق (وليس طلاقاً)(*) واحدة أريد منها فصل الزوجة من جماعة معينة عن زوجها من الجماعة الأخرى، وإنْ كانت هذه الحالة (المصاهرة) شهدت تراجعاً حالياً؛ لأن الزخم التحريضي لم يقف حتى اللحظة خاصة بعد انتشار وسائل إعلام تحريضية من الطرفين.

3. وكان الضبط غير الرسمي (العشائري) سبباً مهماً في كبح الصراع إذ عقد زعماء العشائر ميثاقاً شفاهياً يقضي بمنع أفراد العشيرة من الانخراط في الصراع، وكل واحدة ملزمة بضبط أبنائها. هذا الضبط قوَّض حركة المجموعات المتصارعة وهو ما استدعى إلى الاعتماد على أشخاص غير معروفين ليكونوا محصنين من ذلك الضبط، فكان المتصل الطائفي نتيجة ذلك.

وهذا الاختلال هو الذي جعل الصراع يتراجع في العراق يبقى عبارة عن حالة من التوازن الديناميكي الذي سينتج بعد ذلك حالة من التوافق وهو العملية الرابعة للتفاعل الاجتماعي.

سادسا: التعددية والتوافق

الوفق في اللغة ((كل شيء منسق متفق على تيفاق واحد فهو: وفق، قال: يَهْوِين شتى ويقعن وفقا. ومنه: الموافقة في معنى المصادفة والاتفاق. وتقول وافقت فلانا في موضوع كذا، أي: صادفته. ووافقت فلانا على أمر كذا، أي: اتفقنا عليه معا))(27). ((التوافق : الاتفاق والتظاهر))(28). و((الوفق من الموافقة بين الشيئين؛ كالالتحام))(29).

أما في الاصطلاح فيشبر التوافق إلى نشاط متبادل بين الطرفين يواجهان هذا النشاط على التوالي بناء على التوقعات التي يكوّنها كل منهما فيما يتعلق بالطريقة التي سيستجيب فيها شريكه على مبادرته الخاصة. أما مبادرته الخاصة، فيحددها الطرف الأول على الأقل جزئيا بناء على الأجوبة التي يتوقعها من جهة الطرف الثاني. وهذه التوقعات لا تكون اعتباطية. يكون لها في الغالب أساس. ويتصرف الثاني وفقا لتوقعات الأول. بوجود أساس هذا التوافق في معيار يلزم الطرفين، حتى لو لم يفرض عليها أبدا الجانب نفسه عن السمة المعيارية للفعل الاجتماعي(30).

استعاد العراق وقتها وضعه عبر عملية عكسية لعملية التكوين الانشقاقي–بحسب بيتسون– فكما اتسمت عملية التكوين الانشقاقي بالتمايز التدريجي بين الجماعات، تستعيد هذه الجماعات التوافق التدريجي، بالمقابل فإن هذا التوافق يكون عبر تشابه تارة واختلاف تارة أخرى. ولأن التمايز حاصل في الاساس فإن التوافق من حيث التشابه لا يحدث لأنه نوع من التمثيل أو الاندماج، املأر الذي يصعب تمييز الجماعة عن الأخرى، وأما التوافق عبر الاختلاف فهو الحالة السائدة حالياً في العراق عبر ما يسميه بيتسون (بالتوازن الديناميكي) من جهة ضعف الصراع لدى المجموعتين معاً. إذ يمكن رصد ذلك في الثنائية التي ذكرها بيتسون (حب/إعجاب) فالمناسبات المشتركة (مآتم، أعراس، عيد الفطر، عيد الاضحى)، تمثل توافقاً عبر الاختلاف (الهوية الفرعية) فترى ابن الجماعة الأولى حزيناً حينما يعزي ابن الجماعة الثانية بفقد عزيز له؛ مع أن كلا من الطرفين (المعزِّي والمعزَّى) يحتفظ كل منهما بهويته الخاصة.

هكذا هو الحال في مناسبات الأعراس والأعياد. ومع ذلك تبقى الهوية الخاصة حاضرة عند كل جماعة.

ويمكن اعتبار التشارك في الاقتصاد يمثل نمطاً أخر للتوافق عبر الاختلاف. وفي كل ذلك يظهر نمط متوازٍ مع تلك الأنماط وهو نمط يمكن تسميته بـــ: (لغة التحاشي) إذ يسعى كل طرفٍ عبر الكلام بين الجماعتين التركيز على التوافق واستدعاء كل شاهد يؤيدُه، وانتقاء مفرداته التي لم تغب عن شفاههم، إلّا أن هذه اللغة المتكونة من الكلام والإيحاءات التي تظهر هناك وهناك؛ تشي بحالة من الابتعاد عن ما يثير مكامن الصراع، وإبرازها إلى السطح وهو ما نسميه علاقات التحاشي.

ويمكن تحديد مفهوم (لغة التحاشي) بـــ: الكلام والإيحاءات التى يجرى تبادلها بين جماعتين ثقافيتين مختلفتين أو أكثر، فى إطار واحد يفضي إلى عدم الخوض فيما من شأنه إثارة الصراع بينها، على الرغم من

استدعاء الذهن عند كل واحدة منها لما يؤدي إلى الصراع، لكنَّ حدوداً توجدها هذه الجماعات وتتفق (دون اتفاق) على عدم تجاوزها، الأمر الذي ولَّد نوعاً جديداً من العلاقات بين هاتين الجماعتين يمكن وصفه بعلاقات التحاشي(31).

وهنا تتضح مسألة التوافق في الاختلاف، وهو أيضاً ما يفسر حالة تراجع المصاهرة، لأن في علاقةٍ من هذا النوع (التصاهر) لايقف البحث في مساحات المداراة والمجاملات التي تفرضها لغة التحاشي، بل هي تمثل –كما يعتقدون– مسألة مصير وهو أيضاً نذير بعودة الصراع، عبر إعادة (المتصل الطائفي)؛ لأنه العنصر الأساسي في اختراق تلك الحدود الذهنية التي أوجدتها الجماعات، وعليه فإن هذه الجماعات يوحدها المكان وعلاقات التحاشي، ويفرقها المتصل الطائفي، وهنا يتضح أن المتصل الطائفي يعمل في التنوع في الوحدة لا الوحدة في التنوع؛ لأن الأخيرة هي المثال الأوضح للتوافق عبر التشابه الذي من أهم أمثلته التصاهر.

وبهذا تتضح مسارات العمليات التفاعلية على وفق الاتجاه النظري لغريغوري بيتسون في التكوين الانشقاقي :

جدول يحدد مثيرات عمليات التفاعل

مرجعية التفاعل	التكوين الانشقاقي
مذهبي	صراع
اقتصادي	توافق
اجتماعي	توافق
سياسي	تنافس

يشير الجدول إلى أن طبيعة التفاعل إذا كانت مرجعيتها أو خلفيتها مذهبية (اعتماد المذهب معيارا) وهكذا هو الحال بالنسبة للقومية والدينية فإن نتيجة هذا التفاعل ستكون صراعية، وإذا كانت قائمة على الاقتصاد فإنه ستكون النتيجة تعاونية وتوافقية، وإذا كانت اجتماعية فإنه ستكون كذلك تعاونية وتوافقية، أما إذا كانت سياسية فإنه حينئذ ستكون تنافسية.

نتائج الدراسة

التمثيل لا يوجد بين الجماعتين بل في داخل كل جماعة.

عملية التنافس في المكان كانت وراء عمليات التهجير التي حصلت بنوعيها القسري وغير القسري.

عملية التنافس في المكان والمكانة كانت سببا في بناء حدود إثنية تحصن كل جماعة.

الصراع حدث لا بسبب تنامي القوة داخليا وإنْ بدا ذلك في أول الأمر لكن سرعان ما احتيج إلى خط متصل طائفي؛ ليعوض الاختلال الحاصل نتيجة النقص في العدة والعدد.

ينتهي الصراع بعد انتهاء المتصل الطائفي لدى المجموعتين.

التوافق الذي عقب الصراع أكثر بطئا من نشوبه، وهو أيضا ليس مطردا بل محصوراً في مجال (مآتم، أعراس، .... إلخ)، يمكن تسميته (توافق عبر اختلاف لا تشابه)، فبقيت ضمن (علاقات التحاشي).

تراجع ظاهرة المصاهرة بين الجماعات بعد أن اتسمت بها، إذ كانت عاملا مهما في كبح الصراع، حتى أنه لم تحدث حالة تطليق واحدة، ما يعزز الآصرة بين أبناء المجتمع المدروس قبل ذلك.

التشارك الاقتصادي كان عاملا مهما في كبح الصراع.

كما أن الضبط غير الرسمي (الفصول العشائرية) كانت عاملا مهما في كبح الصراع بعد أن شعر الفرد المنخرط بالصراع بصعوبة عمله علنا، ومن ثم

ينكشف امره ما يعرضه لمخاطر (كسر العصة). وهو أمر ساهم بالمقابل بظهور (المتصل الطائفي).

الهوامش

1 جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، المجلد 11، ،2003، ص 269.

2 باريشوغرمان، علم الاجتماع/ النظرية والمفهوم، ترجمة محمد الغريب عبد الكريم، المكتب الجامعي، ط5، مصر، 1988، ص214.

3 الخليل بن أحمدالفراهيدي، كتاب العين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط2004،1، ص767.

4 المصدر نفسه.

5 د. عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط2، 1983، ص68.

6 الصالح، د. مصلح، الشامل/ قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1999، ص 50.

7 د. عبد الهادي الجوهري، مصدر سابق ص 69.

8 المصدر نفسه.

(*) أدخل كل من كاردينر وينتون مصطلح الشخصية الأساسية على علم الاجتماعي. وقد تبناه العديد من الانثروبولوجيين. ويقصد بالشخصية الاجتماعية الأساسية مجموعة الخصائص التي يتميز بها فرد ما، –التي يشاطره إياها الذي يعيش فيه، فالأفراد الذين ينتمون الى شخصية أساسية يشتركون نفسياَ– اجتماعياً في أذواق وافكار ومواقف عملية تكون بمثابة القاسم المشترك الاجتماعي العام للبنية المدروسة.

يراجع: د. فريدريك معتوق، معجم العلوم الاجتماعية، دار أكاديميا، بيروت، 2001،ص 61–62.

9 نجلاء عبد الحميد راتب، الانتماء الاجتماعي للشباب المصري: دراسة سيميولوجية في حقبة الانفتاح، مركز المحروسة للنشر، القاهرة، 1999 ص 57.

10 أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت 1977، ص 16.

11 سعد محمد علي الكرعاوي، إشكالية الولاء وبناء المجتمع الديمقراطي في دراسة ميدانية في مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة في كلية الآداب جامعة بغداد، بغداد 2010،ص 15.

12 أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ص 1157.

13 المصدر نفسه.

14 المصدر نفسه.

15 شارلوت سيمورسميث، موسوعة علم الإنسان، ترجمة الجوهري وآخرين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 659.

16 أحمد محمد حسين قاسم المبرقع، الطوبجي/ دراسة أنثروبولوجية للنظم العقائدية والتفاعلات الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة في كلية الآداب جامعة بغداد، بغداد 2012،ص119.

17 الخليل بن أحمدالفراهيدي،مصدر سابق، ص442.

18 جمال الدين ابن منظور،مصدر سابق، ص 118

19 د. مصلح الصالح، مصدر سابق،ص 111.

20 شارلوت سيمور سميث،مصدر سابق، ص 464.

21 د. مصلحالصالح، مصدر سابق، ص 111.

22 جريجوري بيتسون (1904– 1980) باحث من الولايات المتحدة الأمريكية أفاد من دراسته للبيولوجيا وعلم النفس في دراسته الأنثروبولوجية المميزة والمبتكرة، وطور اهتمامه بالعلاقة بين علم الاتصال والأنثروبولوجيا مفاهيم عديدة نقلا عن نظرية السيبرنا طيقا. وقد مهدت دراسته الاثنوجرافية بعنوان نافان (1958) الطريق لمجالات كثيرة أصبحت فيما بعد محورا للدراسات الرمزية في الأنثروبولوجيا. ففي هذا المؤلف يستخدم بيتسون مفاهيم روح الشعب والمثل العليا لتحديد المبادئ العامة التي تضفي تماسكاً على نسق الاعتقاد ومن ثم تضفي تماسكا على نسق القيم. وتبنت الأنثروبولوجيا الثقافية في الولايات المتحدة هذه المفاهيم على نطاق واسع لاسيما مفهوم روح الشعب. وتضم المفاهيم الأخرى المؤثرة التي قدمها بيتسون، مفهوم التكوين بالانشطار الذي يصف التوترات المتراكمة الناتجة عن تفاعل اجتماعي ولغوي، وطريقة وصول هذه التوترات إلى ذروتها في انشقاق الجماعات: المفهوم الخاص بمأزق التفكير المزدوج، وهي حالة المطالب المتنافرة أو المتناقضة من الفرد التي يربطها بعض المنظرين بنمو الفصام؛ وكذلك مفهوم ماوراء الاتصال الذي يشير إلى "رسائل حول رسائل" أو "صياغة السلوك اللغوي". وفي كتاب بيتسون المثير بعنوان "خطوات نحو إيكولوجيا العقل" (1972) اكتشاف العلاقة بين نظرية الاتصالات والنظرية الإيكولوجية ونظرية الأنساق.

ينظر: شارلوت سيمورسميث، مصدر سابق، ص 210

(23)الطاهر لبيب، صورة الآخر – العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص 638.

24 الطاهرلبيب، صورة الآخر – العربي ناظرا ومنظورا إليه، مصدر سابق، ص 638.

25 للتفصيل ينظر: البياتي، علاء الدين، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، مؤسسة الأعلمي ــ دار الربية، بيروت ــ بغداد، 1957 ص99 ومابعدها.

2 أحمد محمد حسين قاسم المبرقع، مصدر سابق ص 127

(*) الفرق واضح بين التطليق الذي يتضمن إلزاماً خارجياً والطلاق الذي لا يتضمن هذا الإلزام الخارجي .

27 الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2004، ص 911.

28 الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ص 1259.

29 الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ص 1259.

30 بوريكو، ر. بودون وف، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د. سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، بيروت، ط2، 2007، ص 212.

31 أحمد محمد حسين قاسم المبرقع، مصدر سابق، ص124.

CONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

المصادر

القران الكريم

1. أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، دار الحديث، القاهرة.
2. أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت 1977.
3. أحمد محمد حسين قاسم المبرقع، الطوبجي/ دراسة أنثروبولوجية للنظم العقائدية والتفاعلات الاجتماعية، رسالة ماجستير غير منشورة في كلية الآداب جامعة بغداد، بغداد 2012.
4. باريشوغرمان، علم الاجتماع/ النظرية والمفهوم، ترجمة محمد الغريب عبد الكريم، المكتب الجامعي، ط5، مصر، 1988.
5. بوريكو، ر.بودون وف، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة د.سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، بيروت، ط2، 2007.
6. البياتي، علاء الدين، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، مؤسسة الأعلمي ــ دار الربية، بيروت– بغداد، 1957.
7. جمال الدينابن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، المجلد 11، ،2003.
8. الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2004.
9. د. عبد الهادي الجوهري، قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط2، 1983.
10. سعد محمد علي الكرعاوي، إشكالية الولاء وبناء المجتمع الديمقراطي في دراسة ميدانية في مدينة بغداد، أطروحة دكتوراه غير منشورة في كلية الآداب جامعة بغداد، بغداد 2010.
11. شارلوت سيمورسميث، موسوعة علم الإنسان، ترجمة الجوهري وآخرين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998.
12. الصالح، د. مصلح، الشامل/ قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار عالم الكتب، الرياض، ط1، 1999.
13. الطاهرلبيب،صورة الاخر–العربي ناظرا ومنظورا إليه،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت، 1999.